**المحور الثالث**

**أسكيا محمد توري(ملك سنغاي)**

 **نسبه و مولده و صفاته:**

 ذكره القاضي محمود كعت باسمه الكامل و هو الاسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردي أصلا الكوركري دارا و مسكنا، والده كان يلقب بأرلوم و هو ينتمي إلى عشيرة سيلا، أي انه من طائفة التوري أو التورودبي، أما والدته فتسمى كوساي، و هي ابنة كورا ـ كوي ، أي حاكم منطقة كوي و هي جزيرة كبيرة يحيط بها النيل و هي بالقرب من تنبكتو. وهناك من يحاول أن يوصل نسبه من أمه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، يلقبه السعدي بالأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر.

 و عموما فهو ينحدر من اسرة  سودانية سوننكية على عكس الأسرتين السابقتين الحاكمتين لمملكة سنغاي وهي عائلة ذا و عائلة سني التي تعدان أسرتان بربريتان من بربر لمطة الصنهاجية.

 و يلقب بالاسقيا الحاج محمد توري لأنه كان مؤسس عائلة الاسقيين التي حكمت مملكة سنغاي بعد عائلة سني، حيث يذكر السعدي بان محمد التوري كان قائدا جيوش الملك السابق من عائلة سني وهو أبو بكر داعو، و كان من رجاله االمخلصين، فلما انقلب عليه و بلغ الخبر مسامع بنات سني علي خرجن يرددن كلمة اسكيا، اسكيا و معناها في لغتهم لا يكون اياه أي لا يمكن أن يفعلها هذا الرجل، فلما سمعه محمد توري أمر أن لا يلقب إلا به، فسموه منذ ذلك الحين اسكيا محمد، ثم توارث اللقب أبناؤه من بعده حيث أصبح لقبا للعائلة الحاكمة كلها. كما يلقبه عبد الرحمان السعدي ايضا السيلانكي و التي تعني انتمائه إلى عائلة سيلا و هي عائلة تنتسب إلى القائد المرابطي أبي بكر بن عمر من خلال زوجته فاتيماتو(فاطمة) سيلا.

 أما بخصوص تاريخ مولده فان المصادر المكتوبة لم تشر إلى ذلك، و تكتف فقط بذكر تاريخ توليه عرش سنغاي، و تاريخ وفاته أيضا، لكن بعض الدراسات ترجح انه ولد سنة 1443م بفوتا تورو بالسنغال.

 و لقد وصفت المصادر التاريخية السودانية أخلاقه الرفيعة و مناقبه الفاضلة، حيث يقول عنه محمود كعت: « ... و له من المناقب و حسن السياسة و الرفق بالرعية والتلطيف بالمساكين ما لا يحصى و لا يوجد له مثل لا قبله و لا بعده و حب العلماء و الصالحين والطلبة و كثرة الصدقات وأداء الفرض و النوافل، و كان من عقلاء الناس و دهاتهم، والتواضع للعلماء و بذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين و أعانهم على طاعة الله و عبادته».

 كما وصف عبد الرحمان السعدي مناقبه بقوله: « واجتهد بإقامة ملة الإسلام و إصلاح أمور الأنام و صاحب العلماء و استفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل و العقد و ميز الخلق».

**ثانيا : ظروف توليه عرش سنغاي:**

 نحن ممتنون كثيرا للمصادر السودانية التي تحدثت بشكل مفصل عن الظروف التي أوصلت الأسقيا محمد توري إلى الحكم**،** فالسعدي يذكر بأنه في سنة 898ه/1492م توفي السلطان سني علي لما كان عائدا من غزوة ضد الغورمنشي في بلاد الموشي، فغمره سيل جارف من المياه في الطريق في نهر يسمى كونيفمات غرقا و ذلك يوم 15 محرم سنة 898ه الموافق ل 6 نوفمبر 1492م. فخلفه ابنه ابو بكر داعو على عرش سنغاي، و كان محمد توري من كبار قادة جيش والده آنذاك، فقرر أن ينقلب على السلطان الشاب ، و بدأ بتحضير الحيل التي التي تحقق له هدفه، و لما فرغ من ذلك توجه اليه مع من انظم اليه من جنوده و خاصته فهجم على السلطان في ليلة من جمادي الاولى من سنة 898ه/18فبراير1493م، فهزمه و هرب أبو بكر داعو إلى أن وصل إلى قرية تسمى انكو قرب جاو فتبعه وجرت بينهما معركة أخرى أدت إلى هزيمته و وفاته، و بذلك اعتلى محمد توري عرش سنغاي مؤسسا عائلة حاكمة جديدة تسمى عائلة الاسقيين.

 و يعود سبب انقلاب محمد توري على ابي بكر داعو هو رفض هذا الأخير الإصلاحات التي طلبها منه محمد توري بخصوص تطبيق الدين الإسلامي الصحيح، الا أن الملك الجديد أصر على إتباع طريق أبيه و رفض اتباع الإسلام الصحيح، حيث كان محمد توري و مجموعة من القادة العسكريين في جيش سني علي ناقمين على تصرفات هذا الأخير خصوصا بسبب بعده عن الدين الصحيح و تقتيله للعلماء و الصالحين، و إتباعه للتقاليد الوثنية و ممارسته للظلم و الفسق، فكوّن هؤلاء القادة فريقا إسلاميا يسعى لإصلاح الدين في سنغاي و متأثرين بعلماء تنبكتو، و يتشكل هذا الحزب من محمد بن أبي بكر الذي كان له لقب بتنديو فارما و التي تعني قائد الجبال، و أخيه عمر كمزاغ (كومدياغو) والملقب أيضا بكورمينا فاري (.

 وتقول المصادر بان سني علي لما وافته المنية كان برفقته ابنه أبو بكر داعو الملقب بسني بارو، و في طريق عودته و لما وصل إلى منطقة تسمى بنكي تم توليته في الثاني ملكا خلفا لأبيه، وبعد مرور أربعة أشهر على ولايته ظهرت له حركة معارضة يقودها الاسقيا محمد بن أبي بكر التوري، حيث التقى الطرفان في مدينة انفع، و دار بينهما قتال عظيم، فكان النصر حليف الاسقيا محمد وهرب سني بارو. لكن الاسقيا محمد توري لم يعلن هذه الحرب على شي بارو إلا بعدما أرسل له العالم و الولي الصالح محمد تل الشريف يدعو إلى الإسلام ، لكنه أبى و امتنع، بل و أغلظ الكلام لذلك العالم و همَّ بقتله، ثم عاد هذا العالم إلى الاسقيا محمد يخبره بما حدث بينه و بين شي بارو، فأعاد الاسقيا محمد الكرة و أرسل مرة أخرى العالم الصالح الونكري الأصل الشيخ ألفا صالح ديور إلى شي بارو وابلغه رسالة الاسقيا محمد لكنه تمادى في عناده و امتناعه و تجبره، و طلب احد وزرائه أن تقطع عنق هذا العالم لكنه لم يفعل، و ابلغه رسالة شي بارو إلى الاسقيا محمد بان جوابه له هو القتال، لكن رغم ذلك فقد جمع الاسقيا محمد العلماء و الفقهاء و أكابر الناس و قادة الجيش لمشورتهم حيث اتفقوا أن يرسلوا له رسولا ثالثا عله يلين قلبه و يهتدي إلى الإسلام الصحيح، حيث أرسل إليه هذه المرة القاضي محمود كعت الذي حمل إليه رسالة الاسقيا محمد، لكنه أبى و امتنع بل انه أمر بضرب طبول الحرب، فعاد محمود كعت و اخبر الاسقيا، كما هرب احد وزرا سني علي و هو بركي منسا موسى و أبنائه العشرة إلى جيش الاسقيا و قدموا له البيعة، كما قدم له البيعة بقية أتباعه ، فاندلعت الحرب بينهما حيث انهزم جيش سني باروا شر هزيمة، و توفي في هذه الحرب سني بارو و اعتلى بذلك الاسقيا محمد عرش سنغاي واضعا بذلك حدا و نهاية لحكم عائلة سني الظالمة و مؤسسا لعهد عائلة الاسقيين.

**ثالثا: رحلته الشهيرة إلى الحج:**

 يبدو أن تولي الاسقيا محمد توري العرش عن طريق الانقلاب العسكري كان يفقده نوعا منى الشرعية، كونه انقلب على اسرة بربرية عريقة بنت شرعيتها في الحكم على اساس ديني وتاريخي يعود إلى القرون الميلادية الأولى استنادا إلى قصة جدهم الأول الذي زعموا انه جاء من اليمن ، و رغم أن الاسقيا محمد قد تلقى دعم الفقهاء و كبار القوم و قادة الجيش ، و اخذ مبايعتهم، لكن يبدو انه كان يبحث عن عمل يخلصه من كل تلك الشكوك و يثبت قدم مله راسخا في مملكة سنغاي له و لأسرته و أبنائه من بعده.

 لقد كان محمد توري رجلا اميا لكنه مفعم لبالايمان و اكثر من ذلك رجل سياسي محنك وصاحب بعد نظرا، لذلك فانه قرا في سيرة الاولين من عظماء الملوك في غرب افريقيا فوجد في قصة رحلة الحج الشهيرة للملك منسا موسى ملهما له في تجاوز تخطى عقبة الشرعية الدينية لملكه، فقرر أن يقوم برحلة حج عظيمة تدخله التاريخ ، و نكسبه شرعية تاريخية لا تنازعها عليه أي قوة.

 فلقد كانت رحلته إلى الأراضي الحجازية في موسم(1496 ـــ 1497م، )، أي سافر في سنة 902 هجرية و ذلك في شهر صفر، و اصطحب معه جماعة من أعيان كل قبيلة، و يروي لنا محمود كعت حدوث بعض الكرامات اثناء هذه الرحلة، بسبب وجود بعض الأولياء الصالحين الذين رافقوهم ومنهم الشيخ مور صالح جور الوعكري، الذي أنقذتهم بركته من الموت عطشا.

كما اصطحب معه 1500 رجل منهم خمسمائة فارس و ألف مترجل، و كان معهم ابنه اسكيا موسى، كما حمل معه في هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية و هو من الغنائم التي غنمها من سني علي، و لما وصل إلى مكة تصدق منها بمائة ألف قطعة ذهبية في الحرمين، كما اشترى منهم جنانا في المدينة المنورة و حبسها على أهل التكرور، و انفق مائة ألف أخرى، و اشترى السلع و جميع ما يحتاجه إليه بمائة ألف أخرى، و التقى في مكة بالشريف العباسي.

**أهم إصلاحاته بعد توليه الحكم:**

بمجرد عودته إلى بلده، و هو يمتلك الشرعية الدينية لحكمه، تلقب الاسقيا الحاج محمد توري بلقب الخليفة، ثم أعلن تطبيق الشريعة الإسلامية داخل إمبراطوريته، و التي على أساسها ترتبت مجموعة من الإصلاحات من اجل تنظيم الدولة.

**أولا: الإصلاحات العسكرية:**

 قام بتكوين جيش نظامي بعدما كان في عهد سني علي مفروضا على جميع السكان خلال التعبئة العامة للحرب، لهذا فقد عمل الأسقيا على تشكيل جيش محترف، بعدها تفرغ لتوسيع مملكته فأخضع مسينا و ديارا و بلاد الموشي بعدما رفضوا الدخول في الإسلام، و غزا أغاديس و بلاد الآير في الصحراء. أما جني فخضعت له طواعية بدون حرب، و في سنة 1522 م غزا بلاد التكرور واستولى على منجم غالام الذهبي، و في سنة 5159 م توجه نحو بلاد الهوسا و غزا مملكة كتسينا و تحالف مع ملك كبي الذي كان قويا، كما حارب قادة مالي و انتصر عليهم في الغرب.

 و في السنة الرابعة من حكمه غزا بلاد الموشي في نهر الفولتا، حيث اخذ معه إلى هذه الغزوة الشيخ السيد المبارك مور صالح، حيث جعله رسولا بينه و بين سلطان موشي، حيث بلغه رسالته التي يدعو فيها ملك الموشي إلى الدخول في الإسلام، لكن هذا الأخير رفض بعدما شاور الأموات والكهنة، حسب معتقداتهم. لذلك قام الاسقيا محمد بإعلان الجهاد عليهم، و خرب أرضهم وديارهم، و سبا ابناهم، و كانت أول غزوة إسلامية في بلاد الموشي في التاريخ. أما أهل جني فقد دخلوا في طاعته بدون قتال.